المؤسسة والاستشراف الإيديولوجي للمستقبل

رايس زواوي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، Philo.devellop@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/05/29 **تاريخ المراجعة:** 2018/05/29 **تاريخ القبول:** 2019/05/19

ملخص

فبقدر الهوة بين ثقافة غالبة وثقافة مغلوبة، يبقى استملاك التاريخ في يد الاستعمار، ولا يُمكن امتلاكه إلّا إذا نظر هذا الإنسان إلى نفسه كأقنوم مُنتج للحظة التاريخ. يبدأ هذا الاستملاك بتجميع مقوماته الأساسية على أساس ثقته في صُنع تاريخه من هذه اللحظة، ليتواصل هذا المبدأ في التعرُّف على غيره، إشكاليةٌ أخرى بقدرٍ من الأهمية، هي استثمار الزمن (الوقت) في حلّ أزمة الإنسان المسلم وتوظيفه في حياته الحضارية.

الكلمات المفاتيح: ثقافة واستعمار، تاريخ لحظةٌ إنسانية، تاريخ مؤسسة إجرامية، استغلال وفرد.

The Institution and the Ideological Outlook for the Future

Abstract

To the extent of the gap between a dominant culture and a conquered culture, the appropriation of history remains in the hands of colonialism, and it cannot be possessed unless this human views himself as a productive hypostasis of the moment of history. This appropriation begins with assembling its basic components on the basis of his confidence in the making of his history from this moment, so that this principle continues in getting to know others, another problem with a degree of importance, which is the investment of time in solving the crisis of the Muslim man and using it in his civilized life.

Keywords: Culture and colonist, history as a human moment, history as a criminal institution, exploitation and indvidual.

L'institution et le développement idéologique pour le futur

Résumé

Dans la mesure de l'écart entre une culture dominante et une culture conquise, l'appropriation de l'histoire reste aux mains du colonialisme, et elle ne peut être possédée que si cet être humain se considère comme une hypostase productive du moment de l'histoire. Cette appropriation commence par assembler ses composantes de base sur la base de sa confiance dans la fabrication de son histoire à partir de ce moment, pour que ce principe continue d'apprendre à connaître les autres, autre problème avec une certaine importance, qui est l'investissement du temps pour résoudre la crise de l'homme musulman et l'utiliser dans sa vie civilisée.

Mots-clés: Culture et colonialisme, l'histoire comme moment humain, l'histoire comme une institution criminelle, l'exploitation et l'individu.

المؤلف المرسل: رايس زواوي، Philo.devellop@gmail.com

مقدمـــة

لم يتوان مالك بن نبي إلى النظر إلى الإنسان كمؤسسة قائمة بذاتها، من خلال استنهاض لقيم التاريخ ومحاولة استملاكه في كل لحظةٍ متجدّدة، ذلك أنّ تحرُّك المجتمع والتاريخ، هو من تحرُّك الإنسان: "**فإذا تحرّك الإنسان، تحرّك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن، سكن المجتمع والتاريخ**"[(1)]، فكل لحظةٍ يستشرفها الإنسان كمؤسسة باستملاكه لها، يُعدُّ جزءا من تحضره وطريقته لمعرفة نفسه أولاً (الداخل) ومعرفته للآخر الموضوعي (الخارج).

جاء اختياري لموضوع الكتابة حول الفيلسوف مالك بن نبي والمؤسسة، هو الوقوف على مفهوم المؤسسة باستشراف للمستقبل في كتاباته، وهذا بربطه بمفهوم التجديد لانبعاث نهضة الفكر الإسلامي عموما والجزائري بالأخص بطريقةٍ كونية تمتد إلى الاهتمام بالإنسان كمحور للتفكير واليقظة، وهذا:

- بالتحسيس بالمسؤولية المجتمعية.
- بالاهتمام بالإنسان جوهر الحضارة والنهضة.
- بجعل الإنسان فاعلا ومنفعلا لما يُقبل عليه، فيغيِّر من السكون بجعله حركيا.

●مشكلة الدراسة:

تبرز مشكلة الدراسة من وجود خلل على مستوى فعل العمل بأبجديات الفكر الحضاري لمالك بن نبي في الجزائر وهذا استثناء، لاسيما ممارسة نتاجه الفكري في ماليزيا، ما يُبرِّرُ نجاح التطور الحضاري لفكره في هذا البلد الإسلامي، والأكثر نزوع فكر بن نبي إلى مواكبة الدول المتطورة حضاريا من خلال الاهتمام بالإنسان كمنتج ومجدِّد لتكنولوجية الدول، بحيث جاءت دراساتنا لتكشف عن مؤسسة الاستعمار في طمس هوية الجزائريين، بالأخص وصدهم عن مقوماتهم الوطنية. الأمر الذي أسهم باستمرار في تفاقم الأوضاع الاجتماعية المسببة في هدم النظام الاجتماعي وأمنه النفسي، لذا تسعى دراستنا هذه إلى أشكلة الموضوع والأكثر محاولة سدِّ الثغرات بدراسة مستفيضة لمعنى الإنسان واغترابه بالوقوف على التقاطعات المصطلحية والمفهومية ذات الصلة به.

●أهداف الدراسة:

- تحديد مشكلات الاغتراب ومبررات اللاحضارة.
- بيان مشكلات عدم الانتماء من خلال مؤسسة الاستعمار.
- إبراز الدور الاجتماعي للنهوض بالمسؤولية المجتمعية.

●تساؤلات الدراسة:

ستحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هي مبررات اتخاذ الاغتراب كمسلك للاحضارة.
- ما هي الانعكاسات السلبية لمعنى اللانتماء.
- ما هو دور الإنسان في بناء المسؤولية المجتمعية.

●أهمية الدراسة ومبرارتها: من خلال ما يلي:

1- علاقة موضوع الدراسة بواقع الشباب واغتراب الفكر الحضاري لمالك بن نبي في الجزائر، واتصاله بالواقع المعاش، الأمر الذي استدعى معالجته لما يكتنفه من غموضٍ في ضوء التحاليل العلمية المعاشة من قبل المثقفين والمختصين والمحلّلين لحصر تمظهرات هذه الظاهرة وأسبابها السلبية.

2- جدّة الموضوع بربط المؤسسة الاستعمارية بالتهميش وبالجهاز لرفض الأهلي من الجزائريين خلقت منه أن يكون موضوع اهتمامنا وأصبح اليوم أكثر أهمية.

- **منهجية الدراسة:**

تستند الدراسة على المنهج الأركيو- تحليلي بغرض الوقوف على المعلومات وتحليلها وفقا لمنهج تحليلي وتفسيرها بتحديد الرابط بينها.

- **مصطلحات الدراسة:**

المؤسسة: المقصود بها الجهاز الاستعماري والذي يُشكّل محور وجودها في ظل سياسة التهميش والإقصاء.

الاستشراف: هو المراقبة المستمرة للأهلي الجزائري (Indigène) من قبل المرئي / واللامرئي من الاستعمار.

الإيديولوجيا: هي نتاج عن فعل الاغتراب، في مقابل الأفكار الإيديولوجية المنتجة لمواجهة المدّ الاستعماري، ففي كل مرّةٍ يحاول فيها المرء المنزوع الوعي استعادة ما أُخِذ منه، وهو الحرية تجده يتبنى أفكارا أخرى لاستعادة حريته ووطنه، وهنا يبني ابن نبي ضرورة استعادة الإنسان المستلب استعماريا لحريته.

- **الدراسات السابقة:**

لقد اعتمدنا في بحثنا على العديد من الدراسات المتوفرة في مجال المؤسسة والاستشراف الإيديولوجي للمستقبل، ويمكن أن نشير إلى دراسة عبد القادر بوعرفة (2014) والتي كانت تحت عنوان: **تأملات في فكر مالك بن نبي** وضّح فيه بمعية الأساتذة في كتاب جماعي جملة من القضايا ارتبطت بالثقافة والفكر والأمة والثورة هذه الأخيرة للباحث شريف الدين بن دومة قارب فيها المؤسسة الاستعمارية بالثورة إلى حدٍّ ما؛ أما دراسة المشروع النهضوي والمسار التاريخي في الجزائر (2013) والتي كانت عبارة عن كتاب جماعي صدر عن مجلة مشكلات الحضارة بالجزائر؛ أما الدراسة الثالثة فهي أعمال الملتقى الدولي حول الإسهام الفكري لمالك بن نبي في العلوم الإنسانية والاجتماعية ببجاية بإشراف: هشام شرّاد (2014) حيث أبانت هذه الدراسات عن الحاجة الماسة للعودة إلى فكر ابن نبي وعن احتياجات الشباب وأسباب حدوث الانقلاب في الوطن العربي وانعكاسات الفكر الإيديولوجي البديل لدى الشباب للالتفات حول الثورة. غير أن هذه الأعمال والكتابات لم تلامس إطلاقاً موضوع المؤسسة الاستعمارية بتفكيك الجهاز وأسباب التهميش وخلفياته الاجتماعية والإنسانية والثورية، وهذا ما عكفنا على الاستقلال به في هذه الدراسة.

1- مفهوم الخطاب:

تعدُّ كتابات ابن نبي براديغم على مفهوم الإنسان والتاريخ، وما يحدِّدُ شكل الخطاب (Le Discours) هو آلية الاحتقار للشعوب غير الثقافية ببث روح الإقصاء والعداء والتهميش والتعسُّف، يجدُ فيها المستعمِرُ روحه التي تُوقظ من جديد.

لقد اشتد عضد الاستعمار بالارتكان إلى سياسة التلذُّذ من احتقاره للآخر غير المتميِّز، حيث يضع ابن نبي مخططاً إجمالياً (une esquisse) يُحرِّك دواليبه الإنسان والتاريخ، مؤسستان بعضهما يصنعُ بعضا، لكن في الآن نفسه أحدهما غالبٌ والآخر مغلوبٌ، فالمغلوب هو الإنسان لضعفه ولثقافته الأقل قيمةً ووعياً، والغالب هو احتواء التاريخ، هو مؤسسة الاستعمار صانعُه التاريخ.

لقد تغذى الاستعمار على الشمولية في أعلى معانيها، وعلى العلم، الذي أوصله إلى امتلاك الخطاب وقواعده، ففي الوقت الذي كان فيه الإنسان ذو البعد الواحد ضمن انصياع قوّة الآلة، كان الضمير لدى المستعمِّر منعدماً،

فحياة الإنسانية ووجودها في التغذي من الضمير، لا من العلم (الروح – المادة)، مزدوجة حدّدت بداية النهاية للإنسان المستعمَّر ضمن تواجده في المؤسسة الاستعمارية.

2- نفسية المستعمِّر:

نُدركُ أنّ ثمّة تقسيمات استعمارية، نصنفها في اثنين هما:

– غير الأوروبي (Indigène) أو (Native) بالإنجليزية وما يُقابلها في العربية بـ: الأهلي(البدوي) أي فلسفياً غير المُتميِّز.

– والثاني المُتميِّز (العنصر الأوروبي الاستعماري)، هذا الأخير ينشأ لديه باستمرار كما يقول ابن نبي:" **على أنّه لا يطلب فقط الفائدة المادية ولكنه يرغب أيضاً في بعض الملذّات النفسية الخطيرة** "[1] ما يُمثل قيمة السادية (Sadisme) في تفكير الاستعمار بإشعار عملي للأهلي بالتبعية (Complexe de dépendance)، فالفلسفة العنصرية التي طالما لم ينفصل عنها المستعمَّر، هي تكريس فعل التبعيّة وترسيخ لفكر التمييز العنصري من خلال احتواء الفضاء العمومي وجعله ملكية خاصة تميزُه عن التابع(التبعية)، حيث انفلاص خطاب الملكية(أسباب القوة) للأهلي[*] يجعله يعيش عقدة التبعية ولأنّ القوة = الملكية، تكون المعادلة النفسية– الاجتماعية غير متزنة إطلاقاً.

كنا نعتقد أنّ المؤسسة الوحيدة، هي الاستعمار، في حين هذه الأخيرة هي الفضاء الشمولي (Totalitaire) الذي يحتوي عدّة مؤسسات منها: الآلة التعذيبيّة، السلطة، الشرطة، القضاء، شكل لباس المستعمِّر، مفهوم المستعمِّر في حدِّ ذاته.. تقنيات فرض الإذعان والمسالمة، لينشأ إنسانٌ مجرّد كما تبغيه المؤسسة الاستعمارية.

ربّما استطاعت المؤسسة أن تضع إنسان الأهلي بدون آل التعريف (H- h)، واختزاله إلى مجرّد مفهوم وتقهقره أي ذات فـ: فرد، ولكنها عجزت أن تصنع إنساناً كما كانت تتلذذ السادية، حيث مزدوجة (تضع– تصنع) متناقضتين كلياً في حرب– النون – الزائدة (E-A) (Penser -Panser) عملية معقّدة تمّت داخل فضاء مغلّق عندما نتحدث عن الأهلي، وعن فضاء مفتوح عندما يتعلّق الأمر بالإنسان الاستعماري.

ولفتت انتباهي فكرة اعتقد فيها المستعمِّر وهي – سن اليُتم– بل وعمل عليها وكرّسها في سياسته، حيث بنظره– الأهلي– لم يبلُغ مرحلة النضج، إذن فهو الوصي على حمايته، ولأنّه لم يبلغ سن النضج، لا يحقُّ له أن يتملّص بفعل التحرُّر من سلطة أبويه (الاستعمار)، ففعل التبعية بلغ مداه عندما صارت المؤسسة تعيِّن واجبات الإنسان الأهلي ومستحقاته للمؤسسة.

كثيراً، ما كانت فرنسا المؤسسة تدعي رغبتها الكاذبة في تحرير الشعوب المغلوبة، وفعلياً، أنشأت لهذا الغرض أجهزة لتطويع الشواذ من الناس، إما بالاغتيالات، أو النفي والإقصّاء أو حتى مصادرة الأملاك، فكان الجهاز هو الخيار الوحيد لاستمرار فعل الحضانة والوصي على القُصّر، فلقد اغتالت القانون مرّاتٍ عديدة، لتخلق قانوناً آخر، ألم تدع حقّ الحضانة للقصَّر، وفسخت معنى الحضانة لتمارس فلسفة الحماية لتطويع الأهلي وغير الأهلي حتى مؤسساتها التعليمية، فلم تعط من الثقافة لصاحب الأرض إلاّ ما تريدُه هي من أدبٍ وشعرٍ وإبعاده عن علوم العصر من هندسةٍ، وتقنيةٍ. وإذا رأته مهتمّاً بذلك فسخت حضانتها له واتهمته بالخيانة للقانون وهي التي تغتالُ القانون[**].

3- ما– بعد الواجب:

وتزامن مع فعل اغتيال القانون، تزايد جشع المؤسسة الفرنسية التي انفتحت على السوق الجزائرية بالأخص، لهذا لم تُعِر اهتماما بأخلاق الواجب، وصارت تنادي بانغماسها في أخلاق ما بعد– الواجب (Post-Devoir) حيث الجشع والتلذُذ بالغزو خارج حدودها كان فلسفةً لخلق التبعية من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى توسيع من إمكانيات الثروة لبلادها: "**فانهارت مع هذه الغريزية المادية أُطُر القيّم الاجتماعية، وفقد التوازن الروحي– المادي في الشخصية البشرية عندهم، (...) فاستبدل نظام الرقيق القديم، بنظام أشدّ قسوة، وأكثر شمولية لغالبية أبناء المجتمعات الأوروبية** "[2]، فصار الفرد الأوروبي بجشعه يحملُ جراثيم الكبرياء.

يتأسّس تفكير المؤسسة الاستعمارية على إجهاض ما تبقى من حضارة سادت، ونزع الطابع الروحي عنها بتجريدها من القيّم الأخلاقية والاجتماعية التي تنهّلُ منها شخصيتها الإنسانية، "**ولكن هذا التزوير ليس مصادفةً وإنّما هو جزءٌ من خُطط الاستعمار في سلب الشعوب قواعد حضارتها، وركائز أصالتها، حتى يدعها في فوضى وتخبُط..**"[3]، بمسِّ أحد مقدساتها وهي السيادة تحت مطية الحماية أو الحضانة أو تحرير الإنسان الجزائري من الداخل الذي يعيشه وهنٌ داخل مرير يُعبرُّ بنظره عن الخروج من الحياة الطبيعية للإنسان الطبيعي والمُتزِّن، فتحريره، هو خلق انصياع كلي حتى لمقوماته الشخصية.. بدافع العلم وإبعاده قدر المستطاع عن الضمير..

يعود ليذكر ابن نبي، بأهمية الزمن في حياة الأفراد للانتقال بهم من الذُلِّ والهوان في ظلّ الاستعمار إلى العزّة وبناء الحضارة في ظلّ الوعي بالمصير والسيادة، فاستشراف المستقبل هو أن تعيش حاضرك في لحظةٍ بين عدمين هما: الماضي والمستقبل.

فكل مجتمع، هو رهنُ الزمن، فإذا أحسن التعامل معه، كان معه دوماً في حياته وبناء حضارته ووعيه بمصيره، وإذا ضعف عضده به، كان عبئاً عليه، وفقدَ كل إمكانية لمسايرة التطوُّر الحاصل في الحضارة، فالزمن هو لحظة بين عدمين كما ذكر ذلك ابن حزم الأندلسي(***).

يسترجع ابن نبي حديث لـ: محمّد إقبال بقوله إنّ: "**السرعة الهائلة التي يتحرّك بها عالم الإسلام في جانبه الروحي نحو الغرب**"[4] جعل الشعوب الإسلامية متذبذبة في الانتماء إلى الغرب أو الرجوع إلى تبني الهوية الإسلامية برفض قانون التكيُّف الذي خلق اضطرابا في عملية الانتماء إلى مصيره الإسلامي والتفتُّح نحو الحضارة.

4- الفعل وردّ الفعل:

ومن خلال عملية الانتماء، طرح ابن نبي مسألة فلسفية في غايةٍ من الأهمية هي الفعل/ ردّ الفعل / (Action Ré -action) ليتخذ النزوع معنى الميل النفسي إلى الاختيار، لكن قبل فعل الاختيار، فهو إزماعٌ على الاختيار نفسياً داخل الوسط البيئي والاجتماعي، فالوسط الاجتماعي هو انعكاس للفرد داخل المنظومة الاجتماعية، فلا يستطيع التأقلم، إلاّ متى كانت شروط الوسط الاجتماعي جاهزة لاستقباله، وهذا الأخير مدعاةٌ إلى استملاك الفعل الاجتماعي والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد الوسط[5].

لا زال العالم الإسلامي في معظمه، يُصدَّرُ إليه من العلوم التي لا تتماشى وإحداثيات العصر والتطوُّر لبناء الحضارة، حيث الأدب والشعر والفلسفة والتاريخ والأدبيات.. كلها رضى الغرب أُعطيت للعرب المسلمين، ولم يأخذ من العلوم العصرية التي يبني بها نفسه. لذا، تجِدُه يتكيّف مع الآخر المتميِّز (قانون التكيُّف) لأنّه يعيش حالة الشغف بحضارة عمران الغرب، إلاّ بعض الدول التي حدّدت مصيرها بالثورة مثل باكستان، وإيران. فالحضارة

(****) جاءت عند ابن نبي بقوله: "**وليست تكديساً ولا جمعاً لرُكام من الأشياء، وإنّما هي بناءٌ وتركيبٌ..**"[6]. فيحاول أن يستثمر في عنصر الإنسان بكونه أساس الاستثمار الاجتماعي من خلال اعتبار الإنسان جوهر التنمية، وهذا بتكوين الإنسان وتوظيف عنصر العقل للتغلُّب على التخلُّف وعلى الاستعمار، فيذكر بأنّ التخلُّف هو سياسة المستعمِّر في الجزائر لتجهيل الشعب وإبعاده عن أرضه وبالأخص عدم إعطاء أهمية للزمن وأنّ الرغبة في الحضارة ناتجةً: "**عن تركيب أصيل لعناصر التراب والإنسان، والزمن**"[7].

4-1- مفهوم البراديغم:

يعود ليتحدث بشكل مكثف عن معنى تحالف الدول العربية والإسلامية من جهةٍ، والدول الإفريقية في الجنوب لخلق قوة لمجابهة المدّ المتصاعد الرأسمالي، وهذا بخلق سياسة إستراتيجية تكفُل الاستمرارية على نهج التنمية الاجتماعية أو بشكل جلّي الاستثمار الاجتماعي، وهنا نعتقد إثارته لـ: مفهوم البراديغم قصد خلخلة سياسة الدولة الوطنية وعُنصرها المتمثل في– الإنسان–.

ترتبط الثورة، بارتباط الإيديولوجيا بالإنسان، فالثورة لا تُحدِث تغييراً شاملاً في الواقع الإنساني، إلاّ إذا تغيَّر وعي الإنسان بالالتفاف نحوها وتعمّق فِكرهُ بإيديولوجيا عميقة، بشرطية الأخلاق في العملية التحوُّلية التي يصنع بها المجتمع حضارته لقوله: "..**وليس هناك شيءٌ يقضي على الحضارة كالرجوع إلى المرحلة الغريزية، وبفقدان الأخلاق الحقّة تتحوَّل السياسة إلى بوليتيك والثورة إلى ثورة مضادة والمجتمع المتحضِّر إلى مجتمع منحطّ**"[8]، حيث عملية بناء المجتمع تشترط النقد الذاتي للإنسان ولنفسيته من التراجع عن أخلاقه وغايته في الحياة، في رفضه للفردانية التي تلت عهد الاستقلال، فيعتبرها سُمًّا قاتلاً للإنسان ولإنسانيته ولمجتمعه.

ولتماسك المجتمع في بناء حضارته، لابدّ من اعتماد الأخلاق لخلق الوحدّة التاريخية والمصيرية أمام الجبهات الإمبريالية، فالمجتمع بأخلاقه لقوله: "... **بل من الناحية الاجتماعية، وليس الأمر هنا أن نشرح مبادئ خلقية،(...) أما المجتمع الذي يتجمّع لتكوين حضارة فإنّه يستخدم نفس الغريزة، ولكنه يهديها ويوظفها بروح خلقي سام**"[9]. فيلتفت ابن نبي إلى التذكير بأنّ نشوء المدنية الغربية كان بإيعاز من الاهتمام بالصلات الاجتماعية الخاصة لقوله: ".. **بينما هو في الواقع أثر من أثار تلك العلاقات الاجتماعية، التي وحّدت جهوداً مختلفة لهرتز**(Hertz) **الألماني، وبوبوف(Popov) الروسي**"[10]، فقوّة التماسك كما يسميها ابن نبي هي سبب نشأة الحضارة الإسلامية، وهي ملاذنا لإنتاج حضارة، فالرجل الفَطِن بمجتمعه، هو الذي يعيش لنفسه ولمجتمعه، ألم يقل الله عز وجل: "**ولا تمش في الأرض مرحاً إنّ اللّه لا يحبُ كلّ مختالٍ فخور وأقصد في مشيك...**" (لقمان، الأية 19). [11] فالمشكلة، هي مشكلة الإنسان(*****).

ويستطرد حديثه لمخطط إجمالي يتضمن عامل الوقت والمنهج لبناء الحضارة، حيث: "**الزمن سيوفق في حلّ المشكلات**"[12]، مُعيباً على– الحكومات– والمؤسسات بما فيها الإنسان عن عدم وضع تخطيطٍ منهجيٍّ للعمل الحضاري، حيث يكون الزمن (الوقت) عاملاً فاصلاً في دينامية التغيير والتنمية، وهو المعامل النفسي والواقعي الذي دافع عنه الاستعمار واستثمره في تجهيل الأهلي وإبعاده عن قيَمِه الاجتماعية والأخلاقية وهي دعوة منه لممارسة الفردية وخلع عملية التنمية لقوله: "**وهو يريد منا أن نكون أفراداً تغمرهم الأوساخ، ويظهر في تصرفاتهم الذوق القبيح، حتى نكون قطيعاً محتقراً، يُسلِّم نفسه إلى الأوساخ والمخازي، فيجدنا ناشطين لتلبية دعوته**"[13]، في فلسفةٍ يُحسن فيها ابن نبي توظيف قراءة معنى (الداخل / الخارج) لاحتواء الأهلي من طرف المؤسسة الإمبريالية الفرنسية، حيث الخارج هو الاستعمار، أما الداخل فهو ما يعترينا نفسياً من قابلية للتكيُّف مع

هذا الخارج – من خوفٍ وطاعةٍ وإذعان ومسالمة – وهي تقنيات لإنجاح عمل الخطاب المؤسساتي لفرنسا الآلة، لقول ابن نبي: "**وبذلك تكون العلّة مزدوجة، فكلما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج، فإناّ نرى في الوقت نفسه معاملاً باطنيا يستجيبُ للمعامل الخارجي ويَحطُّ من كرامتنا بأيدينا**"[14]، هي أنّ للاستعمار فلسفةً عنصرية، تحدّدت بالرجوع إلى ممارسة تقنياته للخطاب من تهميش وتعذيب واعتقال..، فتنتفي تحقيق جدلية السيّد والعبد، حيث السيّد يبقى سيّداً لامتلاكه تقنيات الخطاب، ويبقى العبد عبداً لأنّه لم يتحرَّر داخلياً وبالتالي خارجياً (La liberté intérieure) فالحرية هي ملك المعامل الاستعماري.

بالرجوع إلى مزدوجة الخارج / الداخل نقف مع ابن نبي على نفسية الأهلي، وكيف حفَر الاستعمار في داخل الأهلي لمعرفة طريقة تفكيره وتعامله مع الدخيل (الاستعمار).

تتأسّس فلسفته على توافق ثنائية الداخل/ الخارج ومدى صُنعها المستعمِّر/ المُستعمَّر، فالحفر عميقاً في معنى الخطاب بتحديده للثنائية، استطاع أن يكشف عن المعامل النفسي وما ينطوي عليه من تقنيات الانصياع، وهو خطاب لا يرتقي إلى مستوى خطاب الداخل، لقوله: "**اخرجوا المُستعمِّر من أنفسكم يخرجْ من أرضكم**"[15]، فيبيّن هذا النصّ فهم ابن نبي لمصطلح – Habitus، بل دعوته إلى التخلّص منه، لأنّ له سلطة خفيّة على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا(******)، فها هو ابن نبي يستلهمُ نظريته في الحضارة من أخلاقيات الثورة لقوله: ".. **فالثورة التي تقف في منتصف الطريق خلال إنجاز مهماتها أو تخشى إصلاح أخطائها فإنها تنتحرُ**"[16]، إذ الثورة تلزم عليها أخلاقيتها أن تؤسِّس لمبادئها بالرجوع إلى مهمّات الإنسان لبناء دولته الوطنية لما بعد الاستقلال.

مهما يكن، يرتبط التخلُّف بأنّه: " **مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلّم استعمال وسائله الأوليّة، التي هي التراب والزمن بصورة فعالة**"[17]، حيث الحضارة هي التعبير عن بلوغه لمرحلة إدراكاته لمعنى الإنسان والزمن والتراب، كشكل من أشكال استيعاب الحضارة والمدنية والخروج من كوكبة الاستعمار أو القابلية للاستعمار، فنعتقد أنّ التخلُّف هو في الأساس، عدم تجاوُزِه لعقدة قانون التكيُّف الذي غرسه الاستعمار في المستعمَّر، فهو لا زال يُفكِّرُ بأدواته، ولم يتم إخراجُهُ من نفوسنا وهذه عتبة تَحُولُ بين الوصول أو حتى التفكير في التنمية.

تعدُّ الثقافة أساس بقاء الإنسان واستمراريته لبناء الحضارة، بعد بناء نفسيته من خلال الاهتمام بإيديولوجية محرِّكة لعجلة الحضارة، فالسياسة لا تعني الحضارة، كما قد تعني معنى الإنسان، حيث الرجوع إلى الإنسان هو رجوعٌ إلى إيديولوجيا دولة وليس سياسة.

5- الإيديولوجيا، باعثٌ على المدنية:

نفتتحُ هذا العنصر بقول سيشرون مايلي: "**ما يُسمى في الأغنية نغما يُسمى توافُقاً في المدينة..**"[18]. فالإيديولوجيا هي إيمانٌ بآراء وأفكار تكون طريقاً للتغيير، ولسدِّ العثرات أمام تقدم المجتمع، لخلق المدنية، ألم يُضح الألمان بعد الحرب العالمية الثانية بزيادة ساعتين من العمل يومياً مجاناً، فالإيديولوجيا بمثابة مُشحِّذ (Catalyseur) للطاقة الوطنية من أجل بناء الدولة الوطنية من خلال عملٍ محفِّز، هو عمل إيديولوجي بامتياز، يضعها هذا العامل أمام قوّة الإنسان، لمجابهة المصاعب والعثرات وتجاوزها بما يوافق برنامج استشرافي للإنسان الوطني.

لقد اتخذت الإيديولوجيا معنى حماسيا يؤدِّي إلى فهم الإنسان لنفسه من خلال مصارحته لنفسه أولاً، وتوافقه مع وطنه أثناء الاعتكاف على ممارسة معنى الوطنية، فالحضارة ليست تراكُماً ولا تكديساً ولا حتى إيديولوجيا في

جانبها السجالي السلبي، بل هي إيديولوجيا مُنتجة، يؤمن مريدوها ومتقمصوها بفعالية التغيير، فهي الصوت والفعل العملي بتضافر الجهود لبناء الدولة الوطنية..

فلا الإيديولوجيا ولا الوطنية هي بمثابة شعارات نتفوَّه بها، ونتخاطبُ من خلالها، بل عملٌ فعلي يتأتى من فهم الأنا ولمحاورة الآخر، هذا الآخر (الاستعمار) الذي بسط قدرته على إنتاج الأفكار بإنتاج المدنية والحضارة، لا يكون بمجابهته إلاّ بامتلاك أدوات، باستملاكه من إيديولوجيا (الأفكار، الحماس الفعلي، العمل، الإيمان بالفكرة..) لبناء حضارة، ويُعجبُني اطلاع ابن نبي على تراث غيره قصد الاستفادة من تجارب تاريخ الأمم في التنمية والحضارة في اعتماده على شبنغلر عندما عرّف الشعب فقال: "**الشعوب ليست وحدات لغوية سياسية أو حيوانية ولكنها وحدات نفسية، الشعب إنّه وحدّة الروح. إنّ سائر الأحداث الكبرى في التاريخ لم تكن تماماً عمل الشعوب، ولكنها أنشأت تلك الشعوب. إنّ العمل يؤثر في روح فاعله (...) فكلما كان هذا الشعور عميقاً كان هناك حتماً القوّة الحيويّة للمجتمع**"[19]، والتي سماها فيخته بالرسالة أي حمل الفكرة كعلامة فارقة لتطوّر المدنية وإنتاج الحضارة، فليس لأنّك كنت مناضلاً ومحارباً من أجل قضية وطنية، تكون قد أديت واجبا وطنياً، بل واجبك الوطني إزاء مجتمعك هو إنتاجك للأفكار وتجسيدها عملياً فلا تسعهم الرغبة في الذهاب بعيداً أكثر من ذلك، فتجدهم يفتخرون بالأمجاد وبما حقّقوه من مآثر دون أن يتواصل عملهم لما بعد الحرب أو المعركة، فلا يُنتجون من المدنية ولا الحضارة إلاّ أنفسهم ويتسببون في قتل الآخر (المجتمع العريض) برغبتهم في التقاعد عن إنتاج الدولة الوطنية..

ويستطرد عملية بناء الدولة الوطنية بالاهتمام بثنائية الثقافة والسياسة والتي اعتبرها توجيهاً للطاقات، وأنّ ما يحُول عن الحضارة هو عدم وجود خُطط صحيحة لتوجيه الفرد، وهذه صعوبة من الصعوبات التي تقف عن معرفة الفرد لنفسه، وعن الأخطاء في التوجيه، حيث التوجيه هو من الداخل نحو الخارج أي توجيهٌ ثقافي– أخلاقي لنفسية الإنسان إلى إخراج طاقاته إلى الخارج اجتماعيا، فتنشأ الحضارة.

إذن الأمر مرهون بتوجيه تربوي– سياسي، لقوله: "**فالإنسان الخارج من الحضارة يحتوي علة بعض الرواسب، ويكون أكثر مصدراً للمصاعب في المجتمع من ذلك الذي لم يدخل بعد إلى هذه الحضارة**"[20].

6- استشراف المستقبل:

إنّ استشراف خُطط المستقبل يكون بتجميع أرصدة الواجب أكثر من الحقوق، بل تفجير الطاقات يكون بتوجيه الساسة للأفراد وللمجتمع إلى بدل مزيد من الطاقة للعمل الإضافي، لأنّ تحسين مستوى الفرد الاجتماعي، يكون بمراعاة الواجب أكثر، حيث الحقوق هي نتاج ارتفاع المستوى الاقتصادي للدولة (القيام بالواجب). وتواصل تحليل آليات ضعف تجسيد الحضارة، بضعف رجل السياسة لقوله: "**ويحدث أيضاً ألا يكون رجل السياسة في العالم الإسلامي ذلك الكائن الصغير الطموح، يُباعُ، ويُشترى،(...)، بل ينبغي أن يكون (رئيساً) أصيلاً قادراً على تحقيق فكرة كبيرة، يُمارس على الجماهير جاذبية هدف عظيم سام لا يُقاوم**"[21]، والأمر ينطبق على عبان رمضان الرجل الثوري الذي اغتصب السلطة من الثورة وضد الثورة، وكذلك الأمر لـ مصالي الحاج كانت تصرفاته مطابقةً لمخططات الاستعمار، انتهى به المطاف إلى قتله على يدّ تلامذته الذين خانوا الثورة وقتلوه[22]، لكن ما أثار انتباهي وأنا أقرأ لمالك ابن نبي هو عدم تأسيسه لهذه المزاعم على حجج وبراهين علمية وواقعية تاريخية يستند عليها تاريخ الدولة الوطنية علماً أن هذا الكلام في غاية الخطورة.

تبقى الكلاسيكية في السياسة أو في الاقتصاد أو حتى في بناء الدولة الوطنية، عبارة عن توهُّم (illusion) أصاب الغيورين على وطنهم والمضحى بهم لأجل بقاء مصلحة السياسة والقادة، فابتداء من مصالي الحاج وربما قبله وإلى غاية ما بعد– الاستقلال (الدولة الوطنية) لم نر سوى تزلُّف في الآراء وتذبذب في تبني مشروع مجتمع، وما كان عبارة عن مكاسب حقّقها الشعب بعد الاستقلال مثلاً التعددية الحزبية أكتوبر 1988 وما بعدها، كانت إكرامية لغلق الأفواه ومصّ الغضب الشعبي، وهو تقهقُر للكلاسيكية الدّينية وللاشتراكية ورجوع في الآنِ نفسه للكلاسيكية الإسلامية وللاشتراكية الاجتماعية وكلاهما سمٌ قاتل.. إلى درجةٍ يُحذِّرُ ابن نبي من السذاجة التي بالإمكان أن يقع فيها الإنسان المسلم وبالأخص الجزائري من الطموح المُفرِط غير المُخطَّط على عقلانية واقعية (المضحى / المضحى به).

ويتواصل سيناريو التراجع إلى تقهقر الأصل (أصل التفكير) لبناء الحضارة من خلال وثوقية مُفرطة للرجل المسلم الجزائري: " **ويؤسفني أن أقرر أنّ لدى الحركات الإسلامية المعاصرة قدراً من تجارب البعض الآخر، بل يمنعها في بعض الأحيان من أن يفيد كلٌ منها من تجاربه هو ذاته..**"[23]، **ويقول جاك بيرك** (Jacques Berck): "**لولا الإسلام في الجزائر لفقدت الشخصية الجزائرية ذاتيتها، لأنّ ضغط الاستعمار ومفاسده، كان يُمكن أن يؤدي إلى إذابة الشخصية الجزائرية**"[24]. فالإسلام كان يخاطب الحرية الداخلية للجزائري (مخاطبته للضمير وغيرته على وطنه) كان أساس تمرُّده الشرعي، حينها أدرك أنّ الاستقلال هو الوطن بكامله، وأنّ الإسلام هو روحه، فوجب مقارعة الاستعمار بوسائله الحربية، وهذا ما بيّن صمود الثقافة العربية في الإسلام.

إنّ تاريخ الجزائر لا يبدأ من سنة 1830 إلاّ كرونولوجياً عندما نؤرِّخُ للحقبة الاستعمارية، لكن ثقافة الشعب الجزائري تمتد إلى عمق التاريخ (الأصل والهويّة) وهذا ما حاول الاستعمار دوماً فعله لمحو ثقافة الجزائريين لقول نعيم قداح: "**فُرِض على الجزائريين أن يتعلّموا (...) أنّ فيكو الإيطالي هو واضع أسس علم الاجتماع لا ابن خلدون، ودانتي لا المعري...**"[25]، حينها أدرك الجزائريون أنّ محاولة الاستعمار كانت ثقافية– عنصرية من خلال: "**استبدال حضارة بحضارة وتنظيمٍ اجتماعيٍّ بتنظيم اجتماعي، ولغة بلغة..**"[26].

ويُشيرُ أنور الجندي في كتابه السابق من صفحة 240 إلى ذكر مالك بن نبي قوله: "**من العقيدة الإسلامية نفسها انطلقت ثورة الجزائر، وكانت العقيدة الإسلامية نفسها المُحرِّك والدافع الكبير للتيار الثوري في الجزائر**"[27]، كما يذكر في هذا الشأن **عمار وزقان:** "**أنّ رفض الإيديولوجية الإسلامية في بلاد مستعمرة يضطهدون الأكثرية الساحقة فيها، هو علامة تجدُّد أخرق تنادي به فئة منفصلة عن الشعب غريبة الحياة والفكر، امتصتها أو شلّتها أيديولوجيا العدو المستعمِّر**"[28]، حيث صراع الإيديولوجيات صار حكماً للفصل، إلى حدِّ أنّ ما يحكم الفكر الاستعماري هو: "**ترجيحه لثقافة الإمبراطورية وعقدة السيطرة– التفوُّق– التي تستحوّذ على البنى العقلية للغرب**"[29]، فمسار عقدة التفوُّق للمستعمِّر تولّد من تطلُّع سيطرة المؤسسة الشمولية على الثقافات الأخرى، فثقافة البعد الواحد مسّت حتى البنى العقلية لتفكير الإنسان الأوربي الذي تغذى من الاستعدادات والتصورات المؤسسة الغربية– الأوروبية، فبقدر إيمانه باحتواء الثقافات الأخرى، فبقدر انغماسه هو، أن صار يمارسها على نفسه وعلى أهل جنسه.

يأخذ مفهوم التاريخ كطفرة تغييرية يتعرّض لها الفرد من خلال تأثير المحيط الذي يوجد فيه أي (الوسط الطبيعي): "**والتاريخ على أية حال ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له (الذات)، والمجال الذي يحوطها على سواء**"[30] دون أن يربط ابن نبي حركية الوسط الطبيعي بالوسط الاجتماعي (Le milieu social) في عملية

حركية تتفاعلان معاً من خلال تحريك الإنسان إلى تحديد تاريخه الثوري مع الاستعمار، والمصيري بعد الاستقلال.

خاتمـــة

نتائج الدراسة والتوصيات:

لا زال فكر ابن نبي يمثل أرضية بورا تحتاج إلى إعادة القراءة بما يتماشى وأبجديات العصر من خلال دراسة الإنسان في المؤسسة ودوره الثوري في تفعيل حركية التاريخ وكتابته.

تعدُّ فلسفته وليدة العامل النفسي والاجتماعي ومنه قلق العبارة الذي نحيى به إذ يعيد صياغة علاقته بالمجتمع وبالوسط الاجتماعي المنتِج لقيم وفلسفات تُقدَّم على خلاف الغرب الأوربي، ليبني من مفهوم الأمل حضارة أخرى يكون الإنسان المسلم هو أساس بناء المجتمع والحضارة وهذا لا يتأتى إلاّ بالرجوع إلى الالتزام، وهذا ما أسفر عن النتائج التالية:

– لم يكن الغرض من هذا المقال سرد الكتاب والمؤلفين الذين ذكروا وكتبوا عن مالك بن نبي وإنّما الوقوف على كيفيات الاستفادة من تراثه مع الاستعمار.

– قصدنا من هذا المقال منذ بدء كتابته ربط أعمال ابن نبي بالمؤسسة وبالجهاز الذي سلكه الاستعمار لقمع الثورة وتهميش الإنسان الجزائري انطلاقا من أماكن الإقصاء والتعذيب.

– العودة إلى كتابات ابن نبي بتكريس دراسة التراث بمنهجيات مختلفة وقراءات مغايرة لمواكبة العلم الحديث وهذا من خلال الوقوف على الحقيقة.

الإحالات والهوامش:

1– ابن نبي، مالك، (د، ت)، حديثٌ في البناء الجديد، تر: عمر كامل المسقاوي، منشورات المكتبة العصرية– صيدا (بيروت)، ص 50.

2– ابن نبي، مالك، (1981)، في مهبِّ المعركة، دار الفكر– دمشق، ص 20.

(*)– استعملنا كلمة الأهلي أو حتى البدوي في مرّات كثيرة، لأنّها خاصيتنا وليس عقدةً فينا، فنحن نتميّز عن هؤلاء الدخلاء، لأنّنا لسنا منهم لا عرقياً ولا دينيّاً ولا حتى ثقافيا.

(**)– انظر.

ابن نبي، مالك، في مهب المعركة، ص 64 وما بعدها.

3– السحمراني، أحمّد، (1986)، مالك بن نبي" مفكراً إصلاحياً"، دار النفائس– بيروت، ط 2، ص 118.

4– المرجع نفسه، ص 121.

(***)– هو أبو محمّد علي بن أحمّد بن سعيد بن حزم الأندلسي، شاعر ومؤرِّخ، قاض وفيلسوف ورجل دين إسلامي، من مواليد 07 نوفمبر 994 ميلادية، أما وفاته ففي 15 أوت 1064. ومن مؤلفاته:

- الفصل في الملل والأهواء والنحل.
- الرسالة الباهرة.

5– ابن نبي، مالك، (1981)، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر– دمشق، د. طبعة، ص 111.

6– ابن نبي، مالك، (1986)، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر– دمشق، ص 156.

(****)– انظر:

ابن نبي، مالك، (2005)، القضايا الكبرى، دار الفكر– دمشق، ط 5، ص 67.

7– عَبادة، عبد اللطيف، (1984)، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب للطباعة والنشر– باتنة (الجزائر)، ط 1، ص 42.

8- ابن نبي، مالك، القضايا الكبرى، ص 67.

9- عَبادة، عبد اللطيف، المرجع نفسه، ص 100.

10- ابن نبي، مالك، (1979)، مشكلة الثقافة، دار الفكر- دمشق، ص 76.

11- المصدر نفسه، ص ص 77- 78.

12- سورة لقمان، الآية 19.

(*****)- محاضرة أُلقيت باللغة الفرنسية في الجزائر العاصمة بتاريخ: 15 جانفي 1964 وباللغة العربية في مدينة قسنطينة بتاريخ: 30 جانفي 1964.

13- ابن نبي، مالك، (2001)، مشكلات الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- دمشق، ط3، ص 83.

14- ابن نبي، مالك، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 153.

15- ابن نبي، مالك، شروط النهضة، ص 153.

16- المصدر نفسه، ص 155.

(******)- المصدر نفسه، ص 154.

17- ابن نبي، مالك، (1978)، بين الرشاد والتيه، دار الفكر- دمشق، ط 1، ص 24.

18- ابن نبي، مالك، القضايا الكبرى، ص 70.

19- المصدر السابق، ص 106.

20- ابن نبي، مالك، القضايا الكبرى، ص 114.

21- ابن نبي، مالك، (2002)، تأملات، دار الفكر- دمشق، د. ط ، ص 29.

22- ابن نبي، مالك، (2005)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر- دمشق، ط 6، ص 125.

23- المصدر نفسه، ص 124.

24- برغوث، الطّيب، (2004)، محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد عند مالك بن نبي، دار قرطبة- الجزائر، ط 2، ص 09.

25- الجندي، أنور، (1979)، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي الثقافي، دار الكتاب اللبناني والمصري، ط 1، ص 233.

26- الجندي، أنور، المرجع والصفحة نفسها.

27- الجندي، أنور، المرجع نفسه، ص 234.

28- الجندي، أنور، المرجع السابق، ص 240.

29- الجندي، أنور، المرجع نفسه، ص 241.

30 -Hicham Cherrad, La these de Malek Bennabi sur la fin de l'humanité , Acte du colloque international, Publication de la faculté des sciences humaines et sociales, Université de Bejaia, Janvier 2015, p. 46.

31- ابن نبي، مالك، (1986)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، تر:عبد الصبور شاهين، دار الفكر- دمشق، ط 3، ص 26.

قائمة المصادر والمراجع.

1- سورة لقمان، الآية 19.

2- الجندي، أنور، (1979)، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي الثقافي، دار الكتاب اللبناني والمصري، ط 1.

3- السحمراني، أحمّد، (1986)، مالك بن نبي" مفكراً إصلاحياً "، دار النفائس- ، ط 2، بيروت.

4- برغوث، الطّيب، (2004)، محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد عند مالك بن نبي، دار قرطبة- ، ط 2، الجزائر.

5- ابن نبي، مالك، (د، ت)، حديثٌ في البناء الجديد، تر: عمر كامل المسقاوي، منشورات المكتبة العصرية-، د، ط، صيدا (بيروت).

6- ابن نبي، مالك، (1981)، في مهبِّ المعركة، دار الفكر- د. طبعة، دمشق.

7- ابن نبي، مالك، (1981)، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- دمشق، د. طبعة.

8- ابن نبي، مالك، (1986)، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- دمشق.

9- ابن نبي، مالك، (2005)، القضايا الكبرى، دار الفكر- ، ط، دمشق 5.

10- ابن نبي، مالك، (1979)، مشكلة الثقافة، دار الفكر- دمشق.

11- ابن نبي، مالك، (2001)، مشكلات الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- ، ط 3، دمشق.

12- ابن نبي، مالك، (1978)، بين الرشاد والتيه، دار الفكر- ، ط 1، دمشق.

13- ابن نبي، مالك، (2002)، تأملات، دار الفكر- ، د، ط، دمشق.

14- ابن نبي، مالك، (2005)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر- ، ط 6، دمشق.

15- ابن نبي، مالك، (1986)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر- ، ط 3، دمشق.

16- عَبادة، عبد اللطيف، (1984)، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب للطباعة والنشر- ط 1، باتنة (الجزائر)،.

17- Hicham Cherrad, La these de Malek Bennabi sur la fin de l'humanité , Acte du colloque international, Publication de la faculté des sciences humaines et sociales, Université de Bejaia, Janvier 2015.